الحياة الطيّبة
السـنـة 27
الـعـدد 54 - 55
صيف-خريف 2023م
ملف العدد

الأنثروبولوجيا: المصطلح، الجذور، الفروع والنظريّات

الشيخ علي شحادة[1]

مُستَخْلَص:

يدور البحث في هذه المقالة حول مواضيع رئيسة يمكن للقارئ من خلالها التعرُّف على علم الإنسان (الانثروبولوجيا) إجمالًا. إنَّ هذا العلم يهتمّ بدراسة الإنسان ومعرفته معرفةً كلِّيَّةً شاملةً، وغايته الوصول إلى المعاني والمدركات الكلِّيَّة التي تصف الإنسان وصفًا شاملًا. جذور هذا العلم تضرب في عمق التاريخ البشريّ بدايةً من هيروردوت اليونانيّ، وقد ظهرت ملامحه في بعض دراسات ابن خلدون.

انبثقت عن الأنثروبولوجيا فروعٌ متعدِّدةٌ، منها: الأنثروبولوجيا الطبيعيَّة التي تهتمّ بالبحث عن أصل نشوء البشر وعن تأثير الأبعاد الوراثيَّة ودور البيئة في تطوُّر الإنسان وتحضّره؛ والأنثروبولوجيا الاجتماعيَّة التي تُعنى بدراسة مجموع البناء الاجتماعيّ للجماعات بما يحويه هذا البناء من علاقاتٍ وتنظيماتٍ وهيئاتٍ اجتماعيَّ؛ ومنها الأنثروبولوجيا الثقافيَّة وهي العلم الذي يهتمّ بدراسة الثقافة الإنسانيَّة وأساليب الحياة البشريَّة وسلوكيَّات الإنسان المنبثقة عن ثقافته، وتتفرَّع عن الأنثروبولوجيا الثقافيَّة علوم ثلاثة، هي: علم اللغويَّات، والإثنولوجيا، وعلم الآثار أي الأركيلوجيا.

(1) أستاذ في الحوزة العلمية، وطالب دكتوراه في قسم الأنثروبولوجيا في الجامعة اللبنانيَّة، من لبنان.

تتعرَّض هذه المقالة لأهمّ النظريات الأنثروبولوجية التي برزت تباعًا، ومنها:

- النظريَّة الانتشاريَّة التي حاولت فهم أسباب انتشار الثقافات وكيفيَّة انتقالها من مجتمعٍ لآخر معتبرةً أنَّ السمات التي تختصّ بها كلّ ثقافة هي التي تحدِّد مسار انتشارها وتوسُّعها.
- والنظريَّة الوظيفيَّة التي تعتبر المؤسَّسات التي يبتني عليها المجتمع كالدين والقرابة والنظام السياسيّ أجزاء تنخرط بعلاقةٍ منظَّمةٍ يتحرَّك على أساسها المجتمع.
- والنظريَّة البنيويَّة التي افترض مؤسِّسها ستراوس أنَّ الدراسات الأنثروبولوجيَّة يجب أن تنصبّ على الأنماط الرئيسة للفكر الانسانيّ، ويقصد بها تلك التي تنتج الفئات الثقافيَّة التي من شأنها تنظيم وجهات النظر العالميَّة، معتبرًا أنَّ هذه الأنماط لا تُحدِّد ماهيَّة الثقافة بل إنَّها تتحرَّك ضمن هذه الثقافة.
- والنظريَّة التطوُّريَّة التي أكّد أبرز علمائها إدوارد تايلور أنَّ الثقافة تطوَّرت من الوضع البسيط إلى المعقَّد وأنَّ جميع المجتمعات مرَّت بمراحل التطوُّر الثلاث، وهي: الوحشيَّة، ثم الهمجيَّة، وصولًا إلى الحضارة، مستخلِصًا أنَّ التقدُّم ممكنٌ لكلِّ المجتمعات.
- والنظريَّة الرمزيَّة التأويليَّة التي تركِّز على الطريقة التي يفهم بها الناس ممارستهم ومحيطهم الثقافيّ منضمًّا إليها فهم الآخرين ضمن مجتمعهم لهذه الممارسات. يقول أحد أبرز روّادها غكليفورد غيرتز: إنَّ هذه التفسيرات سوف تُشكِّل النظام الثقافيّ المشترك بين أفراد المجتمع الواحد.

كلمات مفتاحيَّة:

الأنثروبولوجيا، جذور الأنثروبولوجيا، فروع الأنثروبولوجيا، الثقافة، التغيّر الاجتماعيّ، النظريَّة الانتشاريَّة، النظريَّة الوظيفيَّة، النظريَّة البنيويَّة، النظريَّة التطوُّريَّة، النظريَّة التأويليَّة، الأنثروبولوجيا والإسلام.

مقدّمة:

لاحظ الإنسان من قديم الزمان الفروق العامّة بين الشعوب والقبائل، فدفعته بواكير فكره إلى البحث عن طبيعة الخلقة البشريّة وعن أصول الطبيعة الإنسانيّة. وبعد أن أدرك بالبداهة وحدة النوع البشريّ سعى لمعرفة المساحة المشتركة واكتشاف الدائرة العامّة التي يقع ضمن حدودها كلّ إنسان.

فاهتمّ الإنسان بدراسة الاختلافات في الشكل واللون، وفي العادات والتقاليد، وفي الدين والفنّ والمعاملات التجاريَّة وغيرها من شؤون الحياة التي تتعاطاها كلّ المجتمعات. وقد انبثق في إطار هذه التساؤلات والاهتمامات ما عُرف بعلم الإنسان أو الأنثروبولوجيا (anthropology).

وقد تكون الطريقة المثلى التي توضح للقارىء حقيقة هذا العلم هي تقديم الطريقة التي يفكّر ويعمل بها الباحث الإنثروبولوجيّ، وهذا ما قرَّرته الأنثروبولوجيّة الأميركيّة مارغرت ميد في تعريفها للأنثروبولوجيا: «نحن نصف الخصائص الإنسانيّة البيولوجيّة والثقافيّة للنوع البشريّ عبر الأزمان وفي كلّ الأماكن، نحلّل الصفات البيولوجيَّة والثقافيَّة المحلِّيَّة كأنساقٍ مترابطة ومتغيّرة، وذلك عن طريق نماذج ومقاييس ومناهج متطوّرة. كما نهتمّ بوصف وتحليل النظم الاجتماعيّة والتكنولوجيا. ونعنى أيضًا ببحث الإدراك العقليّ للإنسان وابتكاراته ومعتقداته ووسائل اتِّصالاته». وتتابع ميد لتشرح المسار الذي تمضي على أساسه الأبحاث الأنثروبولوجيّة، وتقول: «نحن الأنثروبولوجيّين نسعى لربط وتفسير نتائج دراساتنا في إطار نظريّات التطوّر أو مفهوم الوحدة النفسية المشتركة بين البشر»[1].

(1) Mead Margaret, Mœurs et sexualité en Océanie, trad. G. Chevassus, Plon, Paris, 1963 (Coming of Age in Samoa), 1928.

ولتوضيح عمل الإنثروبولوجيّ نذكر بعض الأمثلة:

عندما يجد الباحث أنّ مجتمع الجزيرة العربيّة يرتدي زيًّا موحّدًا، ومن ثمّ يجد في نفسه دافعًا للبحث عن الأسباب والعوامل التي جعلت هذا المجتمع يرتدي هذا النوع من اللباس دون غيره من المجتمعات، وارتباط ذلك بثقافته وبيئته ومناخه أو بدينه ومعتقداته، أو أن يفكِّر في الاختلاف في نوع الأطعمة التي يتناولها الناس لجهة كيفيَّة الحصول عليها وكيفيَّة تناولها وارتباط ذلك بالثقافة أو نمط الحياة أو الدين، أو يبحث عن طرق الزواج وعاداته ومعرفة طقوسه، أو يُجري دراسة مقارنة حول طقوس وتقاليد الزواج بين مجتمعَين متباعدَين جغرافيًّا أو مختلفَين ثقافيًّا، أو يبحث عن أسباب الاختلاف في أنظمة الحكم مثلًا، فيسأل لماذا يترأس سدّة الحكم في هذه البلاد ملك، بينما يحكم في مجتمعات القبائل شيخ كبير السنّ؟

إنّ هذا النوع من الأسئلة التي تتولّد من الدوافع المعرفيّة المرتبطة باكتشاف كلّ ما يتعلّق بثقافة الإنسان وأصوله وقيمه وهويّته الحضاريّة هي التي شكّلت فيما بعد الموضوع الذي يميّز الأنثروبولجيا عن غيرها من العلوم الاجتماعيّة.

فالأنثروبولجيّ لا يكتفي بملاحظة الأشياء بسطحيّة، بل تدفعه هويّته العلميّة إلى التعمُّق والتدقيق في كلّ ما تلاحظه حواسّه حتّى يكشف عن الحقائق المتوارية خلف جدار التاريخ البشريّ، حيث يمكنه الوصول إليها من خلال العمل الميدانيّ، أو اعتمادًا على الوثائق والسجلّات التاريخيّة أو على بقايا مادّيّة للإنسان الذي عاش عصور ما قبل التاريخ.

تتميّز الأنثروبولوجيا عن غيرها من العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة بأنّها العلم الوحيد الذي يسعى إلى فهم الإنسان وأفعاله فهمًا شاملًا ولا يختصّ بجزءٍ من جزئيّات الحياة البشريّة، إنّ موضوعها هو الإنسان في جميع أحواله وأوضاعه؛ الإنسان حينما يمارس الطقوس الدينيّة، وحينما يقبل على

الزواج، وحينما يمارس مهنته، الإنسان ما قبل التاريخ، الإنسان في الماضي القريب والبعيد، الإنسان في الجيل الحاليّ، وإنسان المستقبل القادم أيضًا.

الأنثروبولوجيّون لا يعنيهم الفرد من جهة فردانيّته، بل ينصبّ اهتمامهم على «الإنسان ضمن الجماعة». إنّهم ينظرون إلى الإنسان بوصفه موجودًا اجتماعيًّا له تاريخ. فيتمّ التعامل مع الأفراد بغضّ النظر عن جنسهم وأعمارهم ومهنهم. يتعامل علماء الأنثروبولوجيا مع كلٍّ من الذكور والإناث مع كبار السن ومتوسّطي العمر والشباب، يتعاملون مع المزارعين وأصحاب المهن والمهندسين والأطبّاء والمعلّمين والمحامين والطلاب والإداريّين وما إلى ذلك، ومع الأشخاص من ذوي الأيديولوجيّات المختلفة والمنتمين إلى ديانات مختلفة (الإسلاميّة، المسيحيّة، الهندوسيّة، الزرادشتيّة، الوثنيّة، عبّاد النار...).

يعتقد علماء الأنثروبولوجيا أنّ الإنسان هو الذي يصنع هويّته الثقافيّة؛ لذلك تهتمّ الأنثروبولوجيا بدراسةٍ شاملةٍ للإنسان، فهي تدرس البشر على جميع مستويات الثقافة. لا يوجد أيّ من التخصّصات الأخرى في العلوم الاجتماعيّة له هذا القدر من الشموليّة والانتشار. على سبيل المثال: إنّ علم الاقتصاد يدرس السلوك الاقتصاديّ للإنسان، أي تتمّ دراسة الإنسان فقط من وجهة نظرٍ اقتصاديّة. ويعمل علماء السياسة على ذلك السلوك الإنسانيّ المرتبط بالشؤون السياسيّة. بينما يهتمّ المؤرّخ بالأحداث الماضية للإنسان، والجغرافيّ يدرس ما يتعلّق ببيئة الإنسان. يتعامل عالم النفس بشكل حصريّ مع السلوك العقليّ للفرد. وبالتالي فإنّ كلّ واحد من هذه التخصّصات يدرس بعض جوانب السلوك البشريّ بشكل مستقلّ، أي دون لحاظ غيرها من السلوكيّات؛ ولذلك فإنّ نهج الأنثروبولوجيا يتميّز عن تلك العلوم، فهو لا يحلّل السلوك البشريّ بطريقة مجزّأة. بل يعمل لتغطية جميع جوانب هذا السلوك، أي يدرس كلّ ما يتعلّق بالإنسان.

إذن تُعتبر الأنثروبولوجيا علمًا شموليًّا؛ لأنّها تقدِّم دراسةً شاملةً لجميع جوانب الثقافة والمجتمع بطريقةٍ متكاملة. تدمج جميع جوانب الثقافة، الدين والسياسة والحياة الاجتماعيّة والأسرة والقرابة والاقتصاد والصحّة والتكنولوجيا وما إلى ذلك، ضمن رؤية واحدة؛ لأنّ النظريّة الأنثروبولوجيّة ترى أنّ كلّ جانب من جوانب الثقافة له دور في التأثير الإيجابيّ أو السلبيّ على الجوانب الثقافيّة الأخرى.

وتعتبر الأنثروبولوجيا أيضًا علمًا مقارنًا؛ لأنّها تأخذ في الاعتبار جميع المجموعات البشريّة، وجميع أنواع الثقافة والمجتمع في جميع أنحاء العالم، لتحديد أوجه التشابه والاختلاف في جسم الإنسان وسلوكه وقيمه ومبادئه. من أجل الوصول إلى أحكام عامّة يمكن تطبيقها بشكلٍ أو بآخر على كلّ أفراد الإنسان، وذلك في محاولة مستمرّة لاستنتاج قواعد عامّة للسلوك البشريّ.

أوَّلًا: تعريف المصطلح:

1. التعريف اللغويّ أو الاشتقاقيّ:

كلمة الأنثروبولوجيا (Anthropology) مشتقّة من لفظٍ مركَّب من كلمتين إغريقيّتين، وهما (anthropos) أنثروبوس ومعناها الإنسان، و(logos) ومعناها علم، فالكلمة تعني علم الإنسان أو دراسة الإنسان[1].

2. التعريف الاصطلاحيّ:

تُعرَّف الأنثروبولوجيا على أنّها فرع من فروع العلوم الإنسانيّة تهتمّ بدراسة الإنسان ومعرفته معرفةً كلِّيَّةً شاملة، أي أنّها تصل إلى المعاني والمدركات الكلّيّة التي تصف الإنسان وتعرّف عنه.

(1) انظر: تيلوين، مصطفى: مدخل عامّ إلى الأنثروبولوجيا، لا ط، بيروت، دار الفارابي، 2011م، ص19.

3. المسار التاريخيّ للمصطلح:

في القرن التاسع عشر استعملت كلمة الأنثروبولوجيا للإشارة إلى المجال المعرفيّ الذي يدرس الموضوعات المقابلة لما يدرسه علم الإلهيّات (الثيولوجيا) وعلم الكون (الكوسومولوجيا).

وفي نهاية القرن التاسع عشر اهتمّت الأنثروبولوجيا بدراسة الأعراق والأصول البشريّة المختلفة، كأصول الهنود الحمر وغيرها من المجتمعات القديمة، فكان يُستعمل اللفظ ليعبّر عن كلّ ما يتعلّق بدراسة ميدان العرق البشريّ حتّى مطلع القرن الماضي، حيث أصبح هذا العلم يهتمّ بمواضيع أكثر تطوّرًا تدرس ثقافة الإنسان وقيمه، وكذلك عاداته وتقاليده وطقوسه المختلفة[1].

ثانيًا: جذور الأنثروبولوجيا:

تعود جذور الأنثروبولوجيا إلى الكتابات التاريخيّة والفلسفيّة اليونانيّة القديمة حول الطبيعة البشريّة وتنظيم المجتمع البشريّ. يمكن اعتبار هيرودوت، المؤرّخ اليونانيّ الذي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد، أوّل من كتب عن المفاهيم والأصول التي أصبحت فيما بعد مسائل أساسيّة ومحوريّة في الأنثروبولوجيا. وفي هذا المجال نقدِّم عرضًا موجزًا للمراحل التي مرَّ بها هذا العلم:

1. مرحلة هيرودوت:

بعد أن غزى اليونانيّون في القرن الرابع قبل الميلاد بلاد فارس، ذهب هيرودوت إلى تلك البلاد وأقام فيها، وراقب شعوب الإمبراطوريّة الفارسيّة، ووصف ثقافاتهم المتنوّعة، واعتبر أنّ ثقافة الفرس هي الثقافة المهيمنة في الشرق، وأنّ ثقافة الشعوب اليونانيّة تمثّل ثقافة الغرب، وقد كان هذا

(1) انظر: تيلوين، مدخل عام إلى الأنثروبولوجيا، م. س، ص20.

التقسيم بين الشرق والغرب، بين الأوروبيّ وغيره من الشعوب، النمطَ الذي سيسود لاحقًا في الكتابات الأنثروبولوجيّة[1].

2. مرحلة ابن خلدون:

عاش ابن خلدون في القرن الرابع بعد الميلاد، وكان مؤرّخًا عربيًّا بارعًا، كتب عن العوامل البيئيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة التي تؤثِّر في قيام الأمم وسقوطها، وتحدّث عن أسباب تطوّر الحضارات عبر التاريخ، وقد برزت في كتاباته الأفكار والمفاهيم التي اختصّت فيها الأنثروبولوجيا لاحقًا، فقدّم كتاباتٍ إثنوغرافيّة وتحليليّة موضوعيّة بشكل ملحوظ للثقافات المتنوّعة لدى شعوب البحر الأبيض المتوسّط، لكنّه غالبًا ما استخدم معلومات غير مستقاة من الملاحظة المباشرة[2].

3. مرحلة العصور الوسطى:

خلال العصور الوسطى (من القرن الخامس إلى القرن الخامس عشر الميلاديّ)، سيطر علماء مرتبطون بالفكر الدينيّ المسيحيّ على الواقع الثقافيّ في أوروبا في ظلّ هيمنة الكنيسة، وقدّموا رؤيتهم حول تحديد الأصول البشريّة والتطوّر الثقافيّ. لقد تعاملوا مع هذه الإشكالات العلميّة على أنّها قضايا خاصّة بمعتقدات الكنيسة وأنّ حلّها موجود في الكتاب المقدّس الذي يقول إنّ الوجود البشريّ وكلّ التنوّع البشريّ هما من مخلوقات الله.

ابتداءً من القرن الخامس عشر، بدأت مرحلة الاستكشاف الأوروبيّة بحثًا عن الثروة في مساحات جغرافيّة جديدة، فقدّم المستكشفون أوصافًا

(1) انظر: دي روبرتس، جينيفر: هيرودوت مقدّمة قصيرة جدًّا، ترجمة: خالد علي، لا ط، مصر، مؤسَّسة الهنداوي، 2014م، ص12.

(2) مؤلِّف مجهول، «إسهامات ابن خلدون في اثراء المفاهيم الأنثروبولوجيّة في المقدّمة»، مجلّة الأنثروبولوجيا، مجلّد 8، عدد 2، 2022م.

واقعيّة لثقافات الشعوب التي قابلوها في رحلاتهم في القارات الثلاث، آسيا وأفريقيا، وما يُعرف الآن بالأمريكيّتين.

4. مرحلة عصر التنوير:

شهد عصر التنوير الأوروبيّ في القرنين السابع عشر والثامن عشر ظهور الفكر الفلسفيّ العلميّ والعقلانيّ. كتب مفكّرو التنوير، مثل ديفيد هيوم الأسكتلنديّ المولد، وجون لوك الإنجليزيّ، وجان جاك روسو الفرنسيّ، عددًا من الأعمال الفكريّة حول طبيعة البشريّة. أسّس هؤلاء عملهم اعتمادًا على المنهج العقليّ الفلسفيّ بوصفه بديلًا عن الفكر الدينيّ، وطرحوا أسئلةً أنثروبولوجيّة مهمّة، فقد كتب جان جاك روسو، على سبيل المثال، عن السمات الأخلاقيّة التي تعيشها المجتمعات البدائيّة وعن مسألة عدم المساواة بين البشر.

وتجدر الإشارة إلى أنّ معظم كتّاب عصر التنوير كانوا يفتقرون أيضًا إلى الخبرة المباشرة في التعامل مع الثقافات الجديدة[1].

5. الأنثروبولوجيا ومرحلة الاستعمار:

مع صعود الإمبرياليّة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، زادت رقعة الاتِّصال واللقاء بين الأوروبيّين والشعوب الأخرى في مختلف أنحاء العالم، ما أدّى إلى بروز اهتماماتٍ جديدةٍ بدراساتٍ واسعةٍ لثقافات المجتمعات البشريّة. قامت الدول الأوروبيّة المستعمرة بتوسيع سيطرتها السياسيّة والاقتصاديّة إلى مناطق جديدة في المحيط الهادئ والأمريكيّتين وآسيا وأفريقيا.

أدّت الهيمنة المتزايدة للتجارة العالميّة والاقتصادات الرأسماليّة والتصنيع في أوروبا في أواخر القرن الثامن عشر إلى تغييراتٍ ثقافيّة

(1) http://individual.utoronto.ca/boyd/anthro7.htm.

واسعة النطاق، واضطراباتٍ اجتماعيّة في جميع أنحاء العالم. كان ملّاك الصناعات الأوروبيّة وطبقات النخب الثريّة في أوروبا تتطلّع بطمع إلى أراضي الشعوب البسيطة في أفريقيا وآسيا للحصول على مصادر العمالة والسلع اللازمة للتصنيع.

مضافًا إلى ذلك، غادرت بعض الشعوب الأوروبيّة الفقيرة والمستغَلّة بلادها، وهم الذين شُرّد العديد منهم من أراضيهم بسبب عمليّات التصنيع المتوسّعة، وحاولوا تأسيس حياة جديدة في الخارج، ما ساهم في زيادة احتكاكهم بالشعوب.

بعد مدّة وجيزة، وبسبب كثرة الدراسات الميدانيّة، أصبح لدى الأوروبيّين كمٌّ هائل من المعلومات الجديدة حول الشعوب الأخرى التي وصلوا إليها، بغية استعمارها. أرادت الدول المستعمرة في أوروبا الاستفادة من هذه الدراسات، وجعلتها أداةً تعمل في خدمة الخطط الاستعماريّة.

وتبعًا لهذا الواقع الجديد، وعلى أساس الاهتمام بالثقافات الجديدة والتعرّف على الشعوب الغريبة، شكّل علماء الأنثروبولوجيا الهواة الأوائل مجموعاتٍ في العديد من دول أوروبا الغربيّة في أوائل القرن التاسع عشر، كانت مهمّتها التوجّه إلى البلاد المستعمرة ودراسة ثقافاتها.

كرّست الفرق الأنثروبولوجيّة نفسها لدراسة ثقافات المناطق المستعمرة غير المستكشفة. وقد ملأ الباحثون المتاحف التي تُعرَض فيها الآثار الحجريّة والآثار البشريّة بمقتنيات تمّ الحصول عليها من قبل المستكشفين وضبّاط الاستعمار الجديد. وقام الأطبّاء وعلماء الحيوان، بصفتهم علماء أنثروبولوجيا فيزيائيّة مبتدئين، بقياس جماجم الأشخاص التي جيء بها إلى أوروبا من عدّة بلاد مستعمرة، وكتبوا وصفًا تفصيليًّا للسمات الجسديّة لتلك الآثار البشريّة، فكانت بداية الأنثروبولوجيا الطبيعيّة.

في أوائل القرن التاسع عشر، أظهرت بعض النتائج العلميّة -خاصّة تلك

المتعلّقة بالعظام المكتشفة وغيرها من الآثار، مثل الأدوات الحجريّة- أنّ ماضي البشريّة قد غطّى فترة زمنيّة ترجع إلى ملايين السنين.

في عام 1836، اقترح عالم الآثار الدنماركيّ كريستيان تومسن أنّ ثلاثة عصور طويلة من التكنولوجيا سبقت العصر الحاليّ في أوروبا. وقد أطلق على هذه العصور اسم العصر الحجريّ، والعصر البرونزيّ، والعصر الحديديّ. يتلاءم مفهوم تومسن للعصور التكنولوجيّة جيّدًا مع آراء الجيولوجيّ الإسكتلنديّ السير تشارلز ليل، الذي اقترح أنّ الأرض كانت أقدم بكثير ممَّا كان يُعتقد سابقًا، وأنّها تغيّرت عبر العديد من المراحل التدريجيّة.

وبهذا، ظهرت في القرن التاسع عشر الأنثروبولوجيا الحديثة إلى الوجود جنبًا إلى جنب مع التطوّر والقبول العلميّ لنظريّات التطوّر البيولوجيّ والثقافيّ.

وفي نهاية القرن التاسع عشر، بدأ علماء الأنثروبولوجيا في شغل مناصب أكاديميّة في الكلّيّات والجامعات. أصبحت الجمعيّات الأنثروبولوجيّة أيضًا مناصرةً لعلماء الأنثروبولوجيا للعمل في مناصب مهنيّة. لقد عززوا المعرفة الأنثروبولوجيّة لقيمتها السياسيّة والتجاريّة والإنسانيّة.

ثالثًا: فروع الأنثروبولوجيا:

تشتمل الأنثروبولوجيا على عددٍ من الفروع المنضوية تحت موضوعها العامّ، وتتمايز فيما بينها بموضوعاتٍ خاصَّةٍ يتناولها كلّ فرعٍ من فروعها، وقد تطوّرت موضوعات الأنثروبولجيا، وتزايدت مع نشوء أجيالٍ من الباحثين المهتمّين بمجالات معرفيّة جديدة قائمة ضمن موضوع الأنثروبولجيا ومنهجها.

سنتعرّف في هذا المجال على أبرز فروع الأنثروبولوجيا دراسةً وتحليلًا، وهي:

1. الأنثروبولجيا الطبيعيّة أو الفيزيقيَّة:

يبحث الأنثروبولجيّ مستندًا إلى عمله الميدانيّ الذي يرتكز عليه منهجه عن أصل الـ 78 إنسانًا باعتباره نوعًا من أنواع جنس الحيوان، ويبحث كذلك عن مسألة التطوّر وعن الأسباب التي تتحكّم في الاختلافات البيولوجيّة في المجتمع البشريّ، وكذلك يقارن الباحث في هذا المجال بين الإنسان وغيره من الكائنات الحيّة.

ومن المسائل التي تعالجها أنثروبولوجيا الطبيعة تأثير البعد الوراثيّ للإنسان والبيئة التي ينشأ فيها في تطوّره.

وفي هذه النقطة بالتحديد يظهر تلاقي الأنثروبولجيا بالعلوم الطبيعيّة وتبرز حاجتها إلى تلك العلوم، وذلك من خلال دراسة الهياكل العظميّة للإنسان القديم ودراسة الكائنات الحيّة الأخرى ومقارنتها بالإنسان.

وكمثالٍ على استعانة الأنثروبولجيا بالعلوم الطبيعيّة لتفنيد النتائج العلميّة مسألة نفي أنّ الإنسان والقرد هما من أصل واحد، فقد اعتقد بعض العلماء أنّ الإنسان أصله قرد بسبب أوجه الشبه في البنيان الجسمانيّ بين البشر والقرود، لكنّ هذا الاعتقاد ثبت بطلانه من خلال البحوث العلميّة البيولوجيّة التي أظهرت تفاوت الهرمونات بينهما.

لقد اهتمّ الأنثروبولوجيّ بعددٍ من المسائل التي تتداخل مع علوم الطبيعة كانشغاله واهتمامه بالتفاوت المناخيّ والاختلاف الغذائيّ بين المجتمعات البشريّة وارتباط ذلك بقدرات الإنسان على التقدّم وتحقيق إنجازاتٍ تؤدّي إلى الرفاهية والراحة.

2. الأنثروبولوجيا الاجتماعيَّة:

وهو الفرع القريب لعلم الاجتماع، وتعرف أنّها دراسة مجموع البناء الاجتماعيّ لأيّ جماعةٍ أو مجتمعٍ بما يحويه هذا البناء من علاقاتٍ

وجماعاتٍ وتنظيمات.

بحسب ما تقول لوسي مير[1]، فإنّ هذا القسم من الأنثروبولوجيا قريب جدًّا من علم الاجتماع، ولو أنّ الآراء تختلف وتتباين حول تكييف طبيعة هذه العلاقة. فكلّ منهما يدّعي لنفسه دراسة المجتمع كلّه، وليس جانبًا من جوانبه كالاقتصاد أو السياسة.

ومن المفاهيم الرئيسة التي يعالجها هذا الفرع مفهوم «البناء الاجتماعيّ»، أي أنّ الأنثروبولوجيّ هنا يهتمّ بالمجتمع نفسه، لا بثقافته التي يتكوّن منها، وأنّ جهده ينصبّ في اكتشاف هذا البناء الذي يقوم عليه المجتمع وتحليله، ومعنى ذلك أنّ عليه أن يكتشف العلاقات الاجتماعيّة القائمة بين الأفراد ومعرفة نظام الحقوق والواجبات والحدود التي يختزنها الوعي الجمعيّ.

ويبرز هنا مفهومان يتفرّعان من البناء الاجتماعيّ يهتمّ بالبحث باكتشافهما، وهما المكانة والدور بحسب ما تقول لوسي مير[2]، فإنّ هذين المفهومين استُعمِلا في أميركا بفضل العالـِم الأنثروبولوجيّ رالف لينتون.

والمكانة هي مركز الشخص بالنسبة لآخر يرتبط به بعلاقة اجتماعيّة ما، مثل: الزوج، المدير، الابن، الرئيس، البائع الخ... ويمكن للإنسان أن يشغل عدّة مكانات في آنٍ واحد، وقد يكون له مكانة كلّيّة منخفضة أو مرتفعة بحسب لوسي مير التي تقول إنّ استخدام لفظ المكانة للتعبير عن شيء يسعى الإنسان للوصول إليه هو استخدام خاطئ؛ لأنّ المكانة ليست مكتسبة دائمًا، بل قد تكون موروثة، كمكانة وليّ العهد في النظام الملكيّ.

أمّا مفهوم الدور، فالأنثروبولوجيّ الاجتماعيّ يبحث عن الكيفيّة التي تسند بها الأدوار للأفراد في المجتمع، وعن النتائج التي تظهر بسبب

(1) انظر: الانثروبولوجيا الاجتماعيَّة، ترجمة: علياء شكري؛ حسن الخولي، لا ط، الإسكندريَّة، دار المعرفة الجامعيَّة، 1988م.
(2) انظر: م.ن.

عدم أداء هذه الأدوار على الوجه الصحيح، وتتضمّن الأدوار مسؤوليّات قيادة المجتمع وحمايته، وكذلك الأدوار داخل الأسرة أو العشيرة، والالتزام بالعادات والتقاليد الاجتماعيّة كتقديم الهديَّة في مناسبات كالزواج والولادات وغيرها.

أ. الدور ومفهوم التغيّر الاجتماعيّ:

يبحث الأنثروبولوجيّ الاجتماعيّ عن توّقعات الدور، فيسأل ما هو الدور الذي يرسمه المجتمع للفرد، وما الذي يتوقّعه منه، وما هي ردّة فعل المحيط الاجتماعيّ للفرد الذي يسلك مسلكًا مغايرًا لما يتوقّع منه في ضوء ممارسته للدور الذي منح له. ثمّ يصل الباحث إلى اكتشاف نواة التغيّر الاجتماعيّ الذي يبدأ من خلال خلق مفهومٍ جديدٍ للأدوار، وأنّ الفرد الذي تتكوّن لديه أفكار جديدة في كيفيّة أداء دوره هو فرد يتحرّك خارج الخطوط التي رسمتها البيئة له، أي أنّه يقاوم الضبط الاجتماعيّ. والضبط الاجتماعيّ هو المفهوم الذي يعبّر عن الضغوطات التي تفرض على الأفراد القيام بأدوارهم ضمن التوقّعات، ما يعني أنّ الإنسان الذي يسعى إلى إحداث تغيّرات في مجتمعه عليه أن يتجاوز الضبط الاجتماعيّ ويتحمّل الضغط من خلال أداء الدور بأسلوبٍ جديدٍ وأفكارٍ جديدةٍ تكون عادةً مستهجنةً ومرفوضةً من قبل المحيط الاجتماعيّ.

ب. ارتباط الدور والمكانة بالجماعة:

الجماعة هي مجموعة من الناس يشتركون في مبادىء وقيم محدّدة ولهم مصالح مشتركة، وعندهم موازين خاصّة بهم لقياس المفاهيم والأحداث. والأدوار والمكانات الاجتماعيّة لا يمكن فهمها إلّا ضمن الجماعة.

فالخلاصة أنّ الأنثروبولوجيّ الاجتماعيّ مهمّته الرئيسة دراسة البُنى الاجتماعيّة ومكوّناتها، أي مجموعة الروابط والعلاقات التي تجمع أفراد الجماعة الواحدة.

3. الأنثروبولوجيا الثقافيّة: الأثنولوجيا، الأنثروبولوجيا اللغويّة، الانثربولوجيا الأثريّة:

تعرّف الأنثروبولوجيا الثقافيّة بـ «أنّها ذلك العلم الذي يهتمّ بدراسة الثقافة الإنسانيّة، ويعنى بدراسة أساليب حياة الإنسان وسلوكاته النابعة من ثقافته. وهي تدرس الشعوب القديمة، كما تدرس الشعوب المعاصرة»(1).

تهتمّ الأنثروبولوجيا الثقافيّة بدراسة التراث والعادات والسلوكيّات في مجتمعٍ ما محاولةً اكتشاف عددٍ من الوقائع، مثل طرق العيش التي يتّبعونها، وقواعد تربية الأبناء، وكيفيّة ممارسة طقوس الزواج والولادة أو طقوس الموت، وكيف يمارسون عباداتهم، وكذلك معرفة الفنون والمواهب التي يهتمّون بها، وكيفيّة نقل التراث للأجيال القادمة، وغير ذلك من العادات والقيم وأساليب التعامل فيما بينهم.

يتضمّن هذا الفرع من الأنثروبولوجيا: علم اللغويّات، والأثنولوجيا (علم مقارنة الثقافات)، وعلم الآثار.

أ. الأنثروبولوجيا اللغويّة:

هو أحد فروع الأنثروبولوجيا الثقافيّة، والذي يهتمّ باللغة فقط. لكن دراسة اللغات بوصفها تخصّصًا (علم اللغة) نشأت قبل وقتٍ طويلٍ من ولادة الأنثروبولوجيا. وقد أصبح قريبًا من الأنثروبولوجيا في وقتٍ ما خلال النصف الأوّل من القرن العشرين.

في الوقت الحاضر، يتخصّص بعض علماء الأنثروبولوجيا الثقافيّة في اللغويّات؛ لأنّ اللغة تعكس جانبًا مهمًّا من السلوك البشريّ، وقد كان نقل الثقافة من جيلٍ إلى آخر ممكنًا من خلال اللغة فقط.

اللغة تمكّن الإنسان من الحفاظ على تقاليد الماضي وصنع مسار

(1) بيلز وهويجرا: مقدّمة في الأنثروبولوجيا العامَّة، ترجمة: محمَّد الجوهري وآخرون، لا ط، مصر، دار النهضة، 1977م، ص21.

المستقبل لأيٍّ جماعةٍ بشريّة.

لذلك يدرس علماء الأنثروبولوجيا الثقافيّة اللغة من أجل فهم ثقافة مجتمع، وبذلك يساهمون في تشكيل الرؤية الشاملة والتصوّر التامّ عن تلك الثقافة. وهي تتعامل مع ظهور اللغات واختلافها عبر التاريخ، فيدرسون اللغات المنقرضة واللغات المعاصرة.

كان هناك عدد من علماء الأنثروبولوجيا الذين دار اهتمامهم حول هذا العنصر الأساس في الثقافة الإنسانيّة. عرّف إدوارد سابير (1921) اللغة بأنّها وسيلةٌ إنسانيّةٌ بحتة وغير غريزيّة لتوصيل الأفكار والعواطف والرغبات عن طريق نظامٍ من الرموز المنتجة طوعًا[1].

وقد ذكر وايت في كتابه «علم الثقافة» (1949) أنّ جميع السلوكيّات تنبع وتعتمد على قدرة الإنسان على استخدام الرموز[2].

في الواقع، مهّد استخدام الرموز الطريق أمام الكلام القابل للتواصل. وقد اهتمّ علماء اللغة في القرن التاسع عشر بوصف اللغات وتصنيفها إلى لغاتٍ أمّ ولغاتٍ فرعيّة منبثقة على أساس أوجه التشابه والاختلاف بينها.

ويساهم عالم الأنثروبولوجيا اللغويّة في تقديم الدلائل التي تساعد على فهم ثقافة الشعوب خاصّة القديمة، ومثال ذلك أنّ عالم اللغة يساهم في فهم بنى القرابة في مجتمعٍ ما، فيقدّم أصول الألفاظ المستخدمة في التعبير عن علاقة قرابة بين فردين، ما يوضح البعد الثقافيّ الموروث الذي يفسّر علاقة القرابة هذه، مثل كلمة صهر أو كلمة العديل أو الكنّة.

ويعطي كلود ليفي ستراوس أهمّيّة لعلم اللغويّات ويعتبره أحد الأركان الرئيسة للأنثروبولوجيا، فيقول في كتابه المداريّات الحزينة: «حين نقول

(1) https://newlearningonline.com/literacies/chapter-1/edward-sapir-on-differences-in-language-and-culture.

(2) https://www.jstor.org/stable/42581318.

الإنسان.. فإنّنا نعني اللغة، وحين نقول اللغة.. فإنّنا نقصد المجتمع»[1].

ب. الأثنولوجيا (Athnology):

تُعنى الأثنولوجيا بدراسة طرق التفكير والسلوك المعتادة للمجموعات البشريّة، وتحاول اكتشاف حقيقة الاختلاف بين الثقافات. وتتعامل الإثنولوجيا أيضًا مع ديناميكيّات الثقافة، أي أنّها تحاول معرفة واكتشاف كيفيّة تطوّر الثقافات وتغيّرها عبر الزمن. وقد تمّ اشتقاق موضوع الأثنولوجيا من الأثنوغرافيا، وهي العمل الميدانيّ الذي يقدّم وصفًا خلال الملاحظ المباشرة لجماعةٍ بشريّةٍ في زمنٍ محدّد.

وتفسّر الأثنولوجيا الحقائق الأثنوغرافيّة (أي التوصيفات المباشرة التي سجّلها الباحث الميدانيّ) من خلال التصنيف والتحليل وصياغة المبادئ. أي أنّ عمل الأنثروبولوجيّ الثقافيّ يبدأ بالعمل الأثنوغرافيّ، ومن ثمّ التفسير الذي تقدّمه الأثنولوجيا ليكون ذلك مادّةً فعليّةً تعتبر مقدِّمة لتحقيق نظريّاتٍ وفرضيّاتٍ أنثروبولوجيّة واسعة فيما يتعلّق بطبيعة السلوك البشريّ وتطوّر الثقافة.

الأثنوغرافيا إذًا هي أساس الأنثروبولوجيا الثقافيّة. يتعامل بعض علماء الأنثروبولوجيا الثقافيّة بشكل أساس مع الأثنوغرافيا والأثنولوجيا. إنّهم يسعون إلى فهم العلاقات وأنماط الحياة بين الأنواع المختلفة من الناس كما تتجلّى من خلال مؤسّساتهم ومجموعاتهم القائمة مثل: القرابة، والزواج، والأسرة، والمعاملات الاقتصاديّة، والممارسات الدينيّة، والسلطة الاجتماعيّة، والعمل السياسيّ، وأشكال الفنّ، والموسيقى والرياضة وغيرها من المواضيع التي تبتني عليها ثقافة الشعوب. وعرّف كلوكهون الأثنولوجيا بأنّها: «دراسة الثقافة على أسس مقارنة، وفي ضوء نظريّاتٍ وقواعد ثابتة،

(1) ستراوس، كلود ليفي: المداريَّات الحزينة، ترجمة: محمَّد صبح، لا ط، دمشق، دار كنعان للدراسات والنشر، 2003م.

بقصد استنباط تعميمات عن أصول الثقافات وتطوّرها، وأوجه الاختلاف فيما بينها، وتحليل انتشارها تحليلاً تاريخيًّا»[1].

تعنى الأثنولوجيا بدراسة الثقافة عن طريق المقارنة، ولا سيّما المقارنة بين قوانين الشعوب القديمة، حيث يهتمّ علماء القانون المقارن دراسة بعض العادات والنظم والقيم والتقاليد، مثل: النسب الأبويّ أو الأموميّ، سلطة الأب، الحياة الإباحيّة، الاختلاط الجنسيّ، وطرائق الزواج المختلفة[2].

تبحث الأثنولوجيا في طرائق حياة المجتمعات التي لا تزال موجودة في عصرنا، الحاضرة والقديمة، وتتوافر لدينا عنه سجلّات تكاد تكون كاملة.

فلكلّ مجتمعٍ طريقته الخاصّة في الحياة، وهي التي يطلق عليها العلماء الأنثروبولوجيّون مصطلح «الثقافة». ويعدّ مفهوم الثقافة من أهمّ الأدوات التي يتعامل معها الباحث الأثنولوجيّ[3].

ج. الأنثروبولوجيا الأثريّة:

انبثقت الأنثروبولوجيا الأثريّة من المجال الواسع لعلم الآثار «الأركولوجيا» (archaios تعني القديم وlogia تعني الدراسة) الذي يهتمّ بدراسة الثقافات المنقرضة.

الإنسان الذي يعتبر الشخصيّة المحوريّة في الأنثروبولوجيا، كان موجودًا قبل مئات القرون من تاريخ آخر الوثائق والسجلّات المكتوبة؛ لذلك، فإنّ علم الآثار قادر على إعانة الأنثروبولوجيا في البحث عن حياة الإنسان ما قبل التاريخ من خلال استعادة بقايا البشر من الأيّام السالفة، مضافًا إلى الأدلّة المادّيّة لثقافتهم.

(1) كلاكهون، كلايد: الإنسان في المرآة، ترجمة: شاكر سليم، لا ط، بغداد، منشورات المكتبة الأهليّة، 1964م، ص31.

(2) انظر: زياد حمدان، محمَّد: الثقافات الاجتماعيّة المعاصرة، لا ط، عمّان، دار التربية الحديثة، 1989م، ص103.

(3) انظر: لينتون، رالف: دراسة الإنسان، ترجمة: عبد الملك الناشف، لا ط، بيروت، المكتبة العصريَّة، 1964م، ص25.

يدرس علم الآثار العامّ مواضيع متعدّدة، كالفنون الجميلة والتاريخ الذي يشتمل على تاريخ حياة الإنسان على الأرض عن طريق البحث عن آثار الماضي؛ لذلك فإنّ علماء الأنثروبولوجيا يحتاجون إلى هذا العلم، بل يجب عليهم الاعتماد على علماء الآثار في معرفة أوصاف الإنسان القديم والتعرّف على الثقافات القديمة التي ازدهرت قبل 5000 سنة من الآن.

الأنثروبولوجيا الثقافيّة إذن تحتاج إلى علم الآثار؛ لأنّ علماء الأنثروبولوجيا الثقافيّة يهتمّون بدراسة السلوك الاجتماعيّ للإنسان في الماضي والحاضر على حدٍّ سواء، وهي تتبع ظهور وتطوّر العادات والسلوك الاجتماعيّ من مستوى ما قبل التاريخ وتصعد إلى المستوى المعاصر، حيث يكون كلّ من البدائيّ والمتحضّر موضوعًا جديرًا بالاهتمام.

وهكذا أصبح علم الآثار جزءًا لا غنى عنه من الأنثروبولوجيا. من دون علم الآثار، لن يكون بإمكان علماء الأنثروبولوجيا أن ينجحوا في تحديد كيف عاش الإنسان في الطبيعة، ولن يكون من السهل عليهم فهم عمليّة التطوّر في الحياة البشريّة التي بدأت مذ وضع أوّل إنسان قدمه على الأرض.

وبما أنّ معظم الأدلّة على حياة الإنسان في عصور ما قبل التاريخ غير ملموسة وقابلة للفناء، فإنّها لم تترك أي أثر وراءها، كالوثائق والسجلّات التاريخيّة المكتوبة. فلا يمكن فهم طرق الحياة والعمليّات الثقافيَّة الماضية إلّا على أساس عددٍ قليلٍ من الأدوات التي تمّ استخراجها وتفسيرها من قبل علماء الآثار.

رابعًا: النظريّات الأنثروبولوجيّة الكبرى:

وُلدت نظريّاتٌ كثيرة في الأنثروبولوجيا درست مختلف جوانب حياة الإنسان، ولكلٍّ منها رؤيتها ومنهجها وتفسيرها الخاصّ، إنّ هذه النظريات تدلّ على حيويّة البحث الأنثروبولوجي وفاعليّته، وعلى أنّه متواصل

ومستمرّ يتكيّف مع التغيّرات ويبدع حولها نظريّات ومفاهيم ومناهج. ولقد تعدّدت هذه النظريّات، وكوّنت عددًا من الاتّجاهات النظريّة في الأنثروبولوجيا[1].

سنتعرّض في هذا القسم باقتضابٍ لخمس نظريّات كبرى ساهمت في تفعيل البحث الأنثروربولوجيّ وتطويره، وهي: الانتشاريّة والوظيفيّة، والبنيويّة، والتطوّريّة، والتأويليّة الرمزيّة.

1. الانتشاريّة:

نشأت النظريّة الانتشاريَّة من مدرسةٍ فكريّةٍ أنثروبولوجيّة، حاولت فهم أسباب انتشار ثقافةٍ ما وانتقالها من مجتمعٍ لآخر، مفسِّرةً ذلك بالرجوع إلى السمات التي تختصّ بها تلك الثقافة.

يرى الفكر الانتشاريّ أنّ جميع الثقافات نشأت من مركزٍ ثقافيٍّ واحد (heliocentric diffusion)[2]، أو أنّها نشأت من عددٍ قليلٍ من المراكز الثقافيّة أو الدوائر الثقافيّة (culture circle)، ويرى هذا الفكر حتميَّة تأثُّر كلّ مجتمعٍ بثقافات المجتمعات الأخرى وحتميّة حصول الانتشار الثقافيّ، لكن ضمن شروط محدّدة[3].

يمكن تعريف الانتشار بأسلوبٍ سهل على أنّه انتشار عنصر ثقافيّ من مكانه الأصليّ إلى أماكن أخرى[4].

(1) ttps://www.aranthropos.com/%D985%%D982%%D8%AF%D985%%D8%A9-%D983%%D8%AA%D8%A7%D8%A8-%D8%A7%D984%%D8%A3%D986%%D8%AB%D8%B1%D988%%D8%A8%D988%%D984%%D988%%D8%AC%D98%A%D8%A7-%D8%A7%D8%AA%D8%AC%D8%A7%D987%%D8%A7%D8%AA-%D986%%D8%B8/

(2) محوريّة الشمس.

(3) Winthrop, Robert H. 1991 Dictionary of Concepts in Cultural Anthropology. New York: Greenwood.p:8384-.

(4) Titiev, Mischa. 1958 Introduction to Cultural Anthropology. New York: Henry Holt and Co.p:446.

ويعرّف أيضًا بأنّه العمليّة التي يجري من خلالها نقل السمات الثقافيّة المنفصلة من مجتمعٍ إلى آخر، من خلال الهجرة أو التجارة أو الحرب أو أيّ اتِّصالٍ آخر.(1)

بدأت أبحاث الانتشاريّين في منتصف القرن التاسع عشر، وكان الغرض منها فهم طبيعة توزّع السمات الثقافيّة للمجتمعات البشريّة عبر العالم من خلال دراسة ثقافات المجتمعات المتقدِّمة والمتحضِّرة، والمجتمعات البدائيّة، ومجتعمات البيئة التي ينتشر فيها الجهل والفقر، أي مجتمعات الدول النامية.

وقد ساهمت هذه الدراسات التي كانت متنوّعة بشكلٍ لافت في معرفة كيفيّة تقدّم البشر من الظروف البدائيّة إلى الحالات المتطوّرة(2).

ومن بين الأسئلة الرئيسة التي تطرحها النظريّة الانتشاريّة، ما إذا كانت الثقافة الإنسانيّة قد تطوّرت بطريقة مماثلة للتطوّر البيولوجيّ؟ أو ما إذا كانت الثقافة قد توزّعت من مراكز الابتكار إلى أنحاء أخرى من العالم عن طريق عمليّات الانتشار؟

وقد قدّم الانتشاريّون جوابًا يحمل سمة التطرّف، وهو أنّ ثمّة عددًا محدودًا جدًّا من المواقع الثقافيّة تنتشر منها السمات الثقافيّة المهمّة إلى بقيّة العالم.

من جهةٍ أخرى، قال بعض أنصار التطوّر الاجتماعيّ إنّ «الوحدة النفسيّة للبشريّة» تعني أنّه بما أنّ جميع البشر يشتركون في السمات النفسيّة نفسها، فإنّهم جميعًا متساوون في احتماليّة الابتكار. وضع هذا الرأي

(1) Winthrop, Robert H. 1991 Dictionary of Concepts in Cultural Anthropology. New York: Greenwood.p:82.

(2) Kuklick, Henrika. 1996 Diffusionism. In Encyclopedia of Social and Cultural Anthropology. Alam Barnard and Jonathan Spencer, eds. Pp, 160162-. London: Routledge.

تأسيسًا لفكرة أنّ العديد من الاختراعات والابتكارات المنتشرة في العالم حدثت بشكل مستقلٍّ عن بعضها، وأنّ الانتشار كان له تأثيرٌ ضئيلٌ نسبيًّا على التطوّر الثقافيّ لدى الشعوب المختلفة[1].

2. الوظيفيّة:

قارن الوظيفيّون الأجزاء المختلفة من المجتمع بأعضاء الكائن الحي، وقاسوا العلاقة فيما بين هذه الأجزاء كما تقاس أعضاء البدن بالنسبة إلى بعضها، فكما أنّ الكائن الحيّ قادر على العيش والتكاثر والعمل بالاعتماد على العلاقة المنظّمة لأجزائه وأعضائه، كذلك المؤسّسات التي يتشكّل منها المجتمع، مثل: الدين والقرابة والنظام السياسيّ والاقتصاديّ، وهي الأجزاء التي تماثل أعضاء البدن في الإنسان، فإنّ علاقتها المنظّمة ببعضها هو النظام الذي يتحرّك المجتمع على أساسه، أمّا الأفراد، فهم يمثّلون الخلايا الفاعلة والمتحرّكة في هذا الكائن الاجتماعيّ.

ترتكز الدراسات الوظيفيّة في الأنثروبولوجيا على الأهمّيّة الاجتماعيّة للظواهر، أي الوظيفة التي تقوم بها هذه الظاهرة بخدمة المجتمع من أجل الإبقاء على وجوده وضمان استمراريّته[2].

ظهرت الوظيفيّة بوصفها مدرسةً فكريَّةً في الأنثروبولوجيا في أوائل القرن العشرين. وكان لبرونيسلاف مالينوفسكي ورادكليف براون التأثير الأكبر على تطوّر النظريّة الوظيفيّة.

يمكن القول إنّ الوظيفيّة جاءت كردٍّ فعلٍ على الأخطاء العلميّة الملحوظة في النظريّتين التطوّريّة والانتشاريّة في القرن التاسع عشر[3].

(1) Hugill, Peter J. 1996 Diffusion. In Encyclopedia of Cultural Anthropology David Levinson and Melvin Ember, eds. Pp. 344345-. New York: Henry Holt and Company.
(2) Jarvie, I. C. 1973. Functionalism. Minneapolis: Burgess Publishing Company.
(3) Goldschmidt, Walter.1996. Functionalism. In Encyclopedia of Cultural Anthropology, Vol 2. David Levinson and Melvin Ember, eds. New York: Henry Holt and Company p:510.

تقوم النظريّة الوظيفيّة على رؤيتين:

أ. **الرؤية الأولى:** ما قدّمه مالينوفسكي، وهو أنّ الأفراد لديهم احتياجات طبيعيّة كالزواج والغذاء والسكن، وأنّ المؤسّسات الاجتماعيّة موجودة لتلبية هذه الاحتياجات، وتوجد أيضًا احتياجاتٌ ثقافيّةٌ رئيسةٌ تراعي وجود الإنسان بوصفها كائنًا عاقلًا، مثل: الاقتصاد، والرقابة الاجتماعيّة، والتعليم، والتنظيم السياسيّ وغيرها، وتلبية هذه الاحتياجات تتطلّب وجود مؤسّسات تمتلك أدوات قادرة على تنظيمها. ويجب أن يكون لكلّ مؤسّسةٍ موظفون، وميثاقٌ، ومجموعةٌ من القواعد والمبادىء، والأنشطة، والأدوات المادّيّة على أساس أنّ لهذه المؤسّسة وظيفة ضروريّة في المجتمع.

ب. **أمّا الرؤية الثانية:** فكانت لرادكليف براون الذي ركَّز على البنية الاجتماعيّة بدلًا من الاحتياجات الطبيعيّة. وقال: إنّ المجتمع هو عبارة عن نظامٍ من العلاقات التي تحافظ على نفسها من خلال ردود الفعل التي تحصل بشكلٍ تلقائيّ، في حين أنّ المؤسّسات هي مجموعات منظّمة من العلاقات التي تتمثّل وظيفتها في الحفاظ على المجتمع كنظام.

وقد استلهم رادكليف براون رؤيته من أوغست كونت الذي يعتبر من مؤسِّسي علم الاجتماع، والذي افترض أنّ الإنسان من حيثيّة كونه كائنًا اجتماعيًّا له خصائص مختلفة عن خصائصه البيولوجيّة؛ لذلك أكَّد رادكليف براون أنّ تفسير الظواهر الاجتماعيّة يجب أن يتمّ بناؤه ضمن حيثيّات الكائن الاجتماعيّ وخصائصه. وهكذا، كان الأفراد عند براون قابلين للاستبدال في أيّ دراسة اجتماعيّة، فلم يجعل خصوصيّة للفرد، على عكس مالينوفسكي الذي كان تركيزه منصبًّا على الأفراد[1].

(1) Goldschmidt, Walter.1996. Functionalism. In Encyclopedia of Cultural Anthropology, Vol 2. David Levinson and Melvin Ember, eds. New York: Henry Holt and Company p:510.

3. البنيويّة:

نشأت البنيويّة بوصفها إطارًا نظريًّا في علم اللغة على يد فرديناند دي سوسير في أواخر العشرينات وأوائل ثلاثينات القرن العشرين. وكان دي سوسير يعتقد أنّ اللغات مبنيّة على مبادىء خفيّة غير ظاهرة، وإن كانت معروفة لدى الناطقين بها، لكنّهم غير قادرين على التعبير عنها. أي أنّ الذين يتحدّثون بلغةٍ واحدة ليسوا على حدٍّ سواء في معرفة القواعد النحويَّة التي تحكم لغتهم، ومع ذلك فإنّهم يفهمون ضمنًا هذه القواعد ويرتّبون كلماتهم وفقًا لها، وهم يدركون ذلك، أي أنّهم يستخدمون هذه القواعد استخدامًا صحيحًا عندما يجدون أنفسهم مجبرين على فكّ تشفير ما يقوله شخصٌ آخر لهم[1].

يعتبر كلود ليفي ستراوس (1908 - 2009) مؤسِّس الأنثروبولوجيا البنيويّة متأثّرًا بالبنيويّة السوسريّة. في الأربعينات من القرن الماضي، افترض ستراوس أنّ الدراسات الأنثروبولوجيّة يجب أن تنصبّ على الأنماط الأساسيّة للفكر الإنسانيّ، تلك التي تنتج الفئات الثقافيّة التي من شأنها تنظيم وجهات النظر العالميّة التي تمّت دراستها.

كان ستراوس يعتقد أنّ هذه الأنماط المكتشفة لا تحدِّد ما هي الثقافة، بل إنّها تتحرّك داخل هذه الثقافة. تأثّر عمله بشدّة بإميل دوركهايم ومارسيل موس، وكذلك بمدرسة براغ للسانيّات البنيويّة (التي نظمت عام 1926).

في عام 1972، قدّم ليفي ستراوس كتابه «البنيويّة والأركولوجيا» الذي كان كتابًا تأسيسيًّا للمبادئ التي ابتنت عليها الأنثروبولوجيا البنيويّة. ومن هذا المبادىء، تأكيده على التشابه بين الثقافة واللغة من جهة تكوّنهما من قواعد خفيّة لا يلتفت إليها الفرد الممارس، لكن هذا القواعد هي التي

(1) Johnson, Matthew. (2007) Archaeological Theory. Johnson, Matthew. (2001) Archaeological Theory.p:91.

تتحكّم بسلوك الممارسين. إنّ هذه القواعد بحسب ستراوس هي التي تشكّل الفوارق والاختلافات بين الثقافات، وهي التي تحدّد الهويّة الخاصّة لكلّ ثقافة. وإن الهدف الذي تسعى إليه الدراسات الأنثروبولوجيّة البنيويّة هو التعرّف على تلك القواعد واكتشاف العلاقات فيما بينها.

يرى ستراوس أنّ الظواهر التي يمكن ملاحظتها لا تمثِّل الحقيقة؛ لأنَّها محكومة ببنى خفيّة تتحكّم فيها، وفي هذا الصدد، يرى أنّ المهمّ هو: «البحث عن البناء العميق الذي يكمن وراء الظواهر والعلاقات الملاحظة أو المظاهر السطحيّة، وتحليل الأبنية العقليّة أو الذهنيّة التي تقدِّم لنا المبادئ العامّة، فالأحداث والوقائع الظاهريَّة لا تؤلّف الحقيقة، إنّما هي رموز زائفة خدّاعة تختفي وراءها الحقيقة البنائيّة»[1].

قدّم ليفي ستراوس وسيلةً منهجيّةً اعتبرها ناجعةً لاكتشاف هذه القواعد والبنى الخفيّة، وذلك من خلال تحديد التعارضات الثنائيّة داخل كلّ عنصر ثقافيّ، ومثال ذلك في دراسته عن مفهوم القرابة قال شتراوس إن مجموعات القرابة القبَليّة عادة ما توجد ضمن أزواج أو ضمن مجموعات ثنائيّة تعارض بعضها بعضًا، ولكنّها تحتاج إلى بعضها، ولا يمكن لأيّ معارض الاستغناء عن معارضه.

ويقوم النموذج البنيويّ في الأنثروبولوجيا على فكرة تقول إنّ بنية عمليّات التفكير الإنسانيّ هي واحدة في جميع الثقافات، وأنّ هذه العمليّات العقليّة موجودة في شكل متعارضات ثنائيّة[2].

بعض هذه المعارضات تشمل الساخنة والباردة، والذكر والأنثى، والطبيعة والثقافة. يرى البنيويّون أنّ التعارضات الثنائيّة تنعكس في

---

(1) خريسان، باسم علي: ما بعد الحداثة، دراسة في المشروع الثقافيّ الغربيّ، لا ط، دمشق، دار الفكر، 2006م، ص79.

(2) Winthrop, Robert H. (1991) Dictionary of Concepts in Cultural Anthropology. Greenwood Press: New York.

المؤسّسات الثقافيّة المختلفة[1].

قد يكتشف علماء الأنثروبولوجيا عمليَّات التفكير الرئيسة هذه من خلال دراسة العناصر الثقافيّة، مثل القرابة والأسطورة واللغة. إنّهم يرون وجود حقيقة مخفيّة متوارية خلف جميع أشكال التعبير الثقافيّ.

ومن الأفكار الأساسيّة للبنيويّة التأكيد على أنّ عناصر الثقافة يجب أن تُفهم وتدرس من حيثيّة واحدة، وهي علاقتها بالنظام الاجتماعيّ بأكمله.

فإنّ عناصر الثقافة لا يمكن فهمها إن عولجت بشكلٍ مستقلّ ومتفرّد، فهي في حدّ ذاتها لا تقدّم أي تفسير، لكن يجب أن توضع في سياق النظام الكامل، وأن تدرس وتعالج من حيثيّة جزئيّتها في هذا النظام، كونها تشكِّل جزءًا من المعنى الذي يهدف الباحث الوصول إليه.

4. نظريّة التطوّر الاجتماعيّ:

في بدايات الأنثروبولوجيا، كان الرأي السائد لدى علماء الأنثروبولوجيا هو أنّ الثقافة تتطوّر على نحو تدريجيٍّ وبطريقةٍ موحّدة.

اعتمد التطوّريّون على صعود نظريّة التطوّر لداروين، لكن سعيهم انحصر في تتبّع تطوّر الثقافة عبر الزمن. وكما كان يُعتقد أن الأنواع تتطوّر إلى نحو أكثر تعقيدًا، فكلّما تقدّم النوع كلّما زادت تعقيداته الخلقيّة، كذلك كان يُعتقد أنّ الثقافات تتطوّر من الوضع البسيط إلى الحالات المعقّدة ثمّ الأكثر تعقيدًا.

في البداية، اعتقد العديد من الأنثروبولوجيّين أنّ معظم المجتمعات تمرّ بسلسلة المراحل التطوّريّة نفسها، أو بمراحل متشابهة، إلى أن تصل إلى نهايةٍ واحدة. وقد كان يُعتقد أنّ حركة التغير في ثقافة المجتمع تحدث من الداخل، لذلك آمن التطوّريّون أنّ التطوّر الاجتماعيّ لا بدّ أن

(1) Lett, James (1987) The Human Enterprise. Westview Press, Inc.:Boulder, Colorado.

يحدّد داخل كلّ ثقافة.

إنّ فكرة تطوّر المجتمعات كانت مقبولة من قبل بعض العلماء منذ عصر التنوير. كان الفلاسفة الاجتماعيّون والأخلاقيّون الفرنسيّون والإسكتلنديّون يستخدمون المخطّطات التطوّريّة خلال القرن الثامن عشر. ومن بين هؤلاء كان مونتسكيو، الذي اقترح مخطّطًا تطوّريًّا يتكوّن من ثلاث مراحل: مرحلة الصيد التي تبرز فيها الوحشيّة، مرحلة الرعية التي تمثّل الهمجيّة، والمرحلة التي تمثّل الحضارة البشريّة. أصبح هذا التقسيم الثلاثيّ شائعًا جدًّا بين المنظّرين الاجتماعيّين في القرن التاسع عشر، حيث تبنّت شخصيّات مثل تايلور ومورجان بعضًا من هذا المخطط[1].

بحلول منتصف القرن التاسع عشر، نجح الأوروبيّون في استكشاف وغزو واستعمار الأراضي التي كانت مجهولة لديهم. أدّى هذا المسار الاستكشافيّ إلى ظهور شعوبٍ كانت تعيش أنماط حياة مختلفة تمامًا عن تلك التي عاشتها أوروبا.

إنّ الأنثروبولوجيا انطلقت فعليًّا مع بروز هذه النظريّات الاجتماعيّة التي نشأت استجابةً لهذا التلاقي بين الثقافات المتباينة لمجتمعاتٍ بينها اختلافات واسعة في أنماط العيش وطرق التفكير[2]؛ لذا جاءت نظريّة التطوّر الثقافيّ من أجل المساهمة في تفسير هذا التنوّع بين شعوب العالم.

قُسِّمت المعطيات الإثنولوجيّة إلى مراحل تطوّريّة تبدأ من البدائيّة وتنتهي بالمتحضّرة، وبالاعتماد على فكر التنوير، وعمل داروين، والمعطيات الجديدة العابرة للثقافات، والتاريخيّة، والأثريّة، برز جيلٌ كامل من منظّري

(1) Seymour-Smith, Charlotte 1986 Macmillan Dictionary of Anthropology. Macmillan, New York p:105.

(2) Winthrop, Robert H. 1991 Dictionary of Concepts in Cultural Anthropology. Greenwood Press, New York p: 109.

التطوّر الاجتماعيّ، مثل تايلور ومورجان. طوّر هؤلاء المنظّرون مخطّطات منافسة للتقدّم الاجتماعيّ والثقافيّ الشامل، مضافًا إلى أصول المؤسّسات المختلفة مثل الدين والزواج والأسرة.

اختلف إدوارد تايلور مع ما قاله في أوائل القرن التاسع عشر الكونت جوزيف دي ميستر وغيره من العلماء، بأنّ مجموعات مثل الهنود الأمريكيّين وغيرهم من السكّان الأصليّين كانت نماذج واضحة للانحطاط الثقافيّ. كان يعتقد أنّ الناس في أيّ مكانٍ في الأرض لديهم نفس القابليّة من القدرة على التطوّر والتقدّم ضمن المراحل المحدّدة، فقال: «لقد وصلت المجموعات البدائيّة إلى مكانتها بالتعلّم وليس بالجهل»[1].

أكّد تايلور أنّ الثقافة تطوّرت من الوضع البسيط إلى الوضع المعقّد، وأنّ جميع المجتمعات مرّت بمراحل التطوّر الرئيسة الثلاث التي اقترحها مونتسكيو: من الوحشيّة إلى الهمجيّة إلى الحضارة؛ ولذلك فإنّ «التقدّم» هو أمرٌ ممكنٌ للجميع.

ولمراعاة التنوّع الثقافيّ، افترض تايلور وغيره من أنصار التطوّر الأوائل أنّ المجتمعات المعاصرة كانت في مراحل مختلفة من التطوّر. ووفقًا لهذا الرأي، فإنّ الشعوب «الأبسط» في ذلك الوقت لم تكن قد وصلت بعد إلى المراحل العالية التي وصلتها الشعوب «المتطوّرة». وهكذا، كان يُعتقد أنّ المجتمعات المعاصرة الأبسط تشبه المجتمعات القديمة. وفي المجتمعات الأكثر تقدّمًا، يمكن للمرء أن يرى دليلًا على التطوّر الثقافيّ من خلال وجود ما أسماه تايلور «الناجين»، ويقصد بذلك آثار العادات السابقة التي لا تزال باقية في ثقافات اليوم.

ويذكر تايلور صناعة الفخّار كمثال على البقاء أو على نجاة «ثقافة من

(1) Tylor, Edward B. 2006 The Science of Culture. In Readings for a History of Anthropological Theory. Paul A. Erickson and Liam D. Murphy, eds. Pp. 36. Canada: Broadview Press.

الاضمحلال»، فيقول: إنّ البشر في الماضي كانوا يصنعون أواني الطبخ من الطين، واليوم نصنعها في غالب الأحيان من المعدن؛ لأنّه أكثر متانة، لكنّنا ما زلنا نفضّل الأطباق المصنوعة من الطين أحيانًا، وهذه الأواني لا زالت حاضرة ومرغوبة في مجتمعاتنا.

5. الأنثروبولوجيا الرمزيّة التأويليّة:

تنصبّ دراسات الأنثروبولوجيا الرمزيّة حول الطريقة التي يفهم بها الناس ممارستهم ومحيطهم الثقافي منضمًّا إليها فهم الآخرين ضمن مجتمعهم لهذه الممارسات. إنّ هذه التفسيرات سوف تشكّل النظام الثقافيّ المشترك بين أفراد المجتمع الواحد، وهي التي ستوصل إلى المعاني الثقافيّة الواقعيّة المتوارية خلف الممارسات والعادات، إنّ هذا الفهم المشترك، وإن بدرجاتٍ متفاوتة، بين أفراد المجتمع نفسه هو الذي سيظهر المعنى المتضمّن للممارسات والعادات.

تدرس الأنثروبولوجيا الرمزيّة التأويليّة الرموز والممارسات، مثل الأسطورة والطقوس، التي من خلالها يجعل البشر معاني لهذه الرموز، هذه المعاني تتضمن أجوبةً ضمنيَّةً عن الأسئلة الأساس المتعلّقة بالحياة الاجتماعيّة البشريّة[1].

وفق ما يرى كليفورد جيرتز، يحتاج البشر إلى إشاراتٍ ورموز لتوجيه أنفسهم نحو نظام المعاني الذي تعتنقه ثقافتهم الخاصّة.

تنظر الأنثروبولوجيا الرمزيّة إلى الثقافة باعتبارها نظامًا مستقلًّا للمعنى يجري تحليله من خلال تفسير الرموز والطقوس الرئيسة[2].

(1) Spencer, Jonathan. 1996. Symbolic Anthropology. In Encyclopedia of Social and Cultural Anthropology. Alan Barnard and Jonathan Spencer ed. Pp. 535. London and New York: Routledge.

(2) Spencer, Jonathan. 1996. Symbolic Anthropology. In Encyclopedia of Social and Cultural Anthropology. Alan Barnard and Jonathan Spencer ed. Pp. 535. London and New York: Routledge.

تحكم الأنثروبولوجيا الرمزيَّة فرضيَّتين رئيستين:

أ. **الفرضيّة الأولى:** تقول إنَّ المعتقدات والممارسات، مهما كانت مبهمة، تصبح مفهومةً وواضحةً عندما تُقارب بوصفها جزءًا من النظام الثقافيّ للمعنى[1] (Des Chene 1996:1274).

ب. **الفرضيّة الثانية:** هي أنّ الممارسات يمكن أن تصنّف مفاهميًّا من خلال التفسير، ما يسمح للأنثروبولوجيا الرمزيّة بالمساعدة في تفسير المفهوم إلى جانب تفسيرها للأنشطة الخارجيّة.

ركّزت الأنثروبولوجيا الرمزيّة على الدين وعلم الكونيّات (الكوسمولوجيا) والطقوس والعادات التي تعبّر عن معانٍ، مثل: الأساطير، والفنون المسرحيّة.

لقد درس علماء الأنثروبولوجيا الرمزيّة أيضًا أشكالًا أخرى من التنظيم الاجتماعيّ، مثل: القرابة والتنظيم السياسيّ. تتيح دراسة هذه الأنواع من الأشكال الاجتماعيّة للباحثين دراسة دور الرموز في الحياة اليوميّة لأيّ جماعةٍ بشريّة.

يمكن تقسيم الأنثروبولوجيا الرمزيّة إلى نهجَين رئيسَين: أحدهما: مرتبط بكليفورد جيرتز وجامعة شيكاغو، والآخر مع فيكتور دبليو تورنر في جامعة كورنيل. كان ديفيد شنايدر أيضًا شخصيّةً رئيسةً في تطوّر الأنثروبولوجيا الرمزيّة، لكنَّه لا يمكن تصنيفه ضمن أيٍّ من المدارس الفكريّة.

الفرق الرئيس بين المدرستين يكمن في خلفيّات كلٍّ منهما، فقد تأثّر غيرتز إلى حدّ كبير بعالم الاجتماع ماكس فيبر، وكان مهتمًّا بكلّ ما يرتبط بالممارسات الثقافيّة، بينما كان تورنر متأثّرًا بإميل دوركهايم، وما يرتبط

(1) Des Chene, Mary. 1996. Symbolic Anthropology. In Encyclopedia of Cultural Anthropology. David Levinson and Melvin Ember eds. Pp. 1274. New York: Henry Holt.

بـ «المجتمع» والطرق التي تعمل بها الرموز داخله[1]. كان تورنر مهتمًّا بالتحقيق فيما إذا كانت الرموز تعمل بالفعل ضمن العمليّة الاجتماعيّة بالطريقة التي يعتقد علماء الأنثروبولوجيا الرمزيّة أنّها تعمل بها، بينما ركّز غيرتز بشكل أكبر على الطرق التي ترتبط بها الرموز ببعضها داخل الثقافة، وكيف يرى الأفراد العالم من حولهم، وكيف يتفاعلون معه[2].

خاتمة:

في الختام تجدر الإشارة إلى بعض النقاط التي توضح من جهة تجذُّر المبادىء والغايات العلميَّة للأنثروبولوجيا في الفكر الإسلاميّ، ومن جهةٍ أخرى تعارض هذا الفكر مع نظريَّة التطوُّر البشريّ:

- إنَّ كثيرًا من علماء المسلمين كانوا يمارسون جلّ ما مارسه روَّاد الأنثروبولوجيا في أواسط القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، فكانوا بمثابة الرحّالة الذين جابوا البلاد ولاحظوا عادات العباد وتقاليدهم.
- إنَّ الأنثروبولوجيا التي تسعى إلى إيجاد الكلِّيَّات التي تحكم الجنس البشريّ من خلال الدراسات الميدانيَّة إنَّما تتوافق مع المنهج القرآنيّ الذي يعتبر أنَّ الخلق يرجع إلى نفسٍ واحدةٍ، وأنَّ جميع الناس فطرتهم واحدة، وأنَّه يجب أن يتمّ التواصل والتعارف بين المجتمعات المتباعدة جغرافيًّا وثقافيًّا.
- إنَّ الأنثروبولوجيا علمٌ وُضِعَ لدراسة الإنسان ليصل إلى هدفٍ واحدٍ وهو فهم الإنسان الآخر تمهيدًا لحصول التقارب والتفاهم لا العداء والتخاصم الذي غالبًا ما يكون منشأً للحروب والنزاعات، وهذا ما

(1) Ortner, Sherry B. 1984. Theory in anthropology since the Sixties. Comparative Studies in Society and History. P:128.

(2) Ortner, Sherry B. 1984. Theory in anthropology since the Sixties. Comparative Studies in Society and History. P:129 - 131.

يتوافق بوضوحٍ مع المنهج القرآنيّ.

- تهدف الأنثروبولوجيا إلى تحديد الدوائر العامَّة التي يتّحد فيها الجنس البشريّ. وإنَّ هذا المسار لَيتلاءم مع الفكر الإسلاميّ الذي جعل قيمة الإنسان واحدةً في جميع أفراده، فليست الاختلافات في اللون والشكل وغيرها من محدِّدات الثقافة سببًا في التمايز الفعليّ بين إنسانٍ وآخر بل إنَّ التمايز يكون في مدى اعتناق المبادىء الإنسانيَّة وممارستها.

- تحاول الأنثروبولوجيا الطبيعيَّة معرفة أصل نشوء الانسان وتمايزه عن الحيوانات. وقد ذكر القرآن الكريم أنَّ الله خلق الإنسان في أحسن تقويم، وأنَّه فضَّل الإنسان على غيره من المخلوقات. وهذه النظرة القرآنيَّة تعارض وتباين النظريَّة الداروينيَّة التطوُّريَّة، بينما تتوافق معها المذاهب الفكريَّة التي نقضت الداروينيَّة والانتقاء الطبيعيّ.